

قضية اللغة العربية

للأستاذ أحمد خاكي

١ - التزم واللفظ : يذهب الجمهور من المربين في العصر الحديث الى أن الغاية من التربية ينبغي أن ترمى إلى تدريب الطفل على أكثر أنواع المهارة التي تتطلبها حياته الحاضرة والمستقبلية ، والتي تقتضيها الحضارة وطلب الرزق . بل لقد آمن الكثير منهم بأن الحضارة في نفسها تقوم على المهارة خصب ، وأن العصر الحالي يمتاز فيما يمتاز به بتلك الوجهة الآلية التي تلزمنا بها حاجات الحياة ، وأن التقدم رهين بما يحسنه الجماعة من أنواع المهارة ، وأتينا لن نبذل المثل الأعلى الذي يحدونا الى التقدم حتى نتفنن أكبر عدد منها

ويذهب أصحاب اللغات الى هذا الرأي فيما يتصل بتعليمها . فقد آمن هؤلاء على كل ذلك وزادوا عليه أن تعليم اللغات هو في نفسه ضرب من ضروب المهارة التي يجب أن يكسبها المتعلم حتى يوفق بين نفسه وبين البيئة التي يعيش فيها . بل هو لا بد مرغم على كسبها اذا هو تطلع الى لون من ألوان الحياة أزهى من ذلك الذي اعتاده آباؤه وأجداده . فاللغة عند هؤلاء شبيهة بالشيء أو الجرى أو تناول الطعام أو احسان الرماية أو الطيران . فهي لا محيص للناسي من أن يتلقنها في بيئته ، بل هو مجبول على تلقنها ما دام يرى أن حياته تقوم على الاجتماع بسائر الأفراد ، وأن اتصاله الفكري مع من حوله لا يستقيم الا اذا تلقن لفهم كتابه وقراءة وحديثا . واللغة فوق ذلك مهارة سامية جديرة بالاحسان لأنها تتحمل في أطوائها تراث المدينيات التي تحدثت الينا ، ولأنها - اذا كانت أجنبية - مفتاح لمدينيات أخرى تفلتت في تاريخ البشرية نفسه

واللغة بعد ذلك دليل على التقدم الفكري لأنها الوسيط الذي تتجسد فيه الأفكار والآراء . وليست اللغة من ذلك الوجه إلا رموزاً أطلقت على المعاني التي تتدفق في نفس الإنسان . وهي التي تسيطر على موارد تلك المعاني ومصادرها . فكل كسب لتلك المهارة التي نسميها « اللغة » انما هو تحديد لذاتنا الفكرية . وكل تحديد لتفكيرنا انما هو فتح جديد للمنطق والفلسفة بل فتح لسائر العلوم

فاذا كانت اللغة تفيض بالمفردات التي تصف كل فكرة دقيقة من تلك الأفكار ، وإذا كانت ألفاظها قد تطورت مع الحضارة حتى كانت كافية بأن تصف المعاني التي تنثال في خواطر المتحضرين ، كان ذلك دليلاً على كفايتها في مسيرة التقدم العقلي . وليست قضية اللغة عندنا قضية ألفاظ خصب ، ولا هي قضية تراكيب ، انما القضية عندنا في كفاية تلك الألفاظ وهذه التراكيب . فهل استطاعت هذه أن تسير الحضارة الحديثة ؟ وهل استطاعت أن تنقل معانيها إلينا ؟ ذلك ما نشك فيه

ونحن نشك في شيء آخر غير ذلك . إنه لا يمكن لغة أن تسير الحضارة أو الثقافة إلا إذا كانت مرنة تتسع لكل معنى حديث . وتلك المرونة التي تظهر بجلاء في لغة كالانجليزية قد فقدت مكانها في لغة كالعربية . وهي قد فقدت مكانها في لغات أخرى قبل لغتنا لأنها قدمت عن أن تماشي الحضارة في تقدمها . وأخص ما يمتاز به الانجليزية هو ذلك الاستيعاب الذي يظهر في كل وجه من وجوهها ؛ فهي قد استوعبت ألفاظاً من كل قطر حلت فيه فئة من الانجليز . وألفاظها توافي المتحدث بها في كل موضوع يطرق ، لسكتنا تشكك كثيراً فيما إذا كانت العربية والانجليزية سواء . فالعربية غير مرنة ؛ وهي لغة تقليدية تتولى عن الألفاظ الدخيلة ؛ وقد بدأت تسير الحضارة الحديثة منذ وقت قليل لما يكف لتغذيتها بألفاظ تطلق على المعاني التي تتجدد في كل ساعة من ساعات الحضارة

لم يكن لنا أن نذكر كل ذلك لولا أننا نؤمن بأن في اللغة استعداداً لقبول كثير من الإصلاح . ولعل أفضل إصلاح اللغة أن نبداً بتفهم طرق التدريس التي من شأنها أن تجعل اللغة لغة أفكار ومعاني قبل أن تكون لغة ألفاظ ومفردات ، وتفهم طرق التربية التي تكسبها مرونة اللغات الأخرى . ويستطيع المعلمون أن يتغلبوا على تلك العقبات التي يلقونها اذا هم وجدوا أمة من أهل الرأي تجاهد معهم في هذا السبيل . على أننا سوف نكتفي في مقالنا هذا بذكر وجه آخر من علاقة اللغات ، ثم بتحديد أغراضنا من دراستها . وسوف نعالج في مقال آخر الوسائل التي تراها

٢ - وصلة اللغة : وفي كل الذي أسلفنا أكثر من دليل على أن عنايتنا باللغة ينبغي أن تحل عندنا المسألة الأولى بين مختلف

ما توحيه الكلمات من حب وبغض وسرور وحزن . ففي ألفاظها كل المعاني التي يجيش بصدرة ، وفي أعطافها ما يحرك قلبه ويهز فؤاده . ولأن اللغة وحدة في ذاتها تجد بين لغة الإنسان الأصلية وبين لغته الدخيلة أو الأجنبية كثيراً من التشابح والأسباب ، فلا يستطيع متحدث أن يعالج الكلام عن النأية إلا إذا بدأ بالأولى ، ولا يستطيع متعلم أن يقرب لغة أجنبية حتى يتخذ الأصلية عوناً على تفهمها . فاللغة الأصلية هي السجل الذي تنتظر فيه مراحل تفكيره ، وهي المرآة التي تنعكس عليها حياته العقلية والحسية في وقت معاً

من أجل ذلك كانت اللغة الدخيلة غالة في أفكارها ومعانيها على اللغة الأصلية ، وكان حرياً بها أن تكون كذلك عند الناشئين ؛ فالحق أن الأفكار والمعاني لا تعرف ألفاظاً تحدها في موضع ضيق تنقيد به ؛ ولأن اللغة الأصلية نتيجة لتفكير الإنسان ، ولأنها ثمرة لتقدمه العقلي كانت خليفة أن تكون أساساً لتعليم اللغة الأجنبية كما كانت الأساس في الدراسات الأخرى ، وخليفة أن تتماز بالجلال والوضوح ، وأن يعنى بها المربون أول شيء لأنها تتدخل في تعلم اللغات الأخرى وفي إحسان العلوم ، بل في نمو الإنسان وتفكيره

ولقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الذين يبحرأ دراسة اللغة وأخرجوه للناس كما لو كان كشفاً من كشاف العلم الحديث ، وكانت الجمهرة من علماء التربية يرون منذ بضع سنين أن اللغات منفصلة ، وأن الإنجليزية مثلاً لا تستقيم إلا إذا حبسنا تفكير الناشئ عن العربية في دروس الإنجليزية . وقد كان يشوب ذلك كثير من الخطأ ، فلم يكن يعترف عقل المتعلم بتلك الحدود المفروضة التي ضربت عليه ، وقد كان يخترق تلك الحدود ، وكانت اللغة العربية تلتقي بالإنجليزية في تفكير الطفل مهما حاولنا المباعدة بينهما . وقام في السنين الأخيرة علماء مثل الدكتور (وست) صاحب الطريقة المشهورة يعترفون بتلك الصلة ويستمتنون بها في تعليم الإنجليزية . وحدث على أثر ذلك انقلاب سريع في أساليب التعليم عندنا ، وغدا للعربية وزن في تعليم الإنجليزية في السنوات الدراسية الأولى

وعندنا أن موطن الإصلاح الأول هو اللغة العربية . وإصلاح مثل ذلك لن يتناول طرائق التعليم ، ولا أساليب الدراسة فحسب

المواد التي نعلمها . فهي حقيقة بالتقدير إذا تحدثنا عن أى مثل أعلى عالمي ؛ وفي دراستها توحيد للمعنى السامى الذى ما زال يلمب بخيال الإنسانية ، والتقدم الفكرى رهين بالتقدم اللغوى ، ولأن اللغة أساس صالح لتلك المواد ، ولأنها تتحكم في تلقينها وفي تلقنها ، فإننا نرى أن إصلاح التعليم في مصر رهين بإصلاح أساليبنا في تعليم اللغة العربية وفي تغيير وجهتنا فيما يختص بالأغراض التي ترمى إليها بل اللغة العربية متصلة وثيق الاتصال باللغات الأجنبية التي نعلمها اتصالها بتعليم المواد الأخرى . وإذا نحن نظرنا إلى تلك المواد نظرنا إلى مجموعات متوافقة من الأفكار والمعاني استطعنا أن نرى كيف تحدد اللغة تفكيرنا ، وكيف تواتينا القدرة على تفهم تلك المواد إذا كانت اللغة مهارة مكسوبة أحسنها . فاللغة في مفرداتها وصيغها تكون وحدة عامة متصلة الحلقات مشبكة الأطراف ، وهي في نفسها نتيجة لنماء العقل ونشاط التفكير . وليست مفردات اللغة كما قدمنا إلا رموزاً للأفكار التي يلتف بعضها حول بعض في حياة الإنسان العقلية ، والتي تتألف حولها كثير من شعاب الدواحي . وحين يدرج الناشئ في السنين الأولى من طفولته يكسب كثيراً من تلك الأفكار التي يحاول أن يبرع عنها ، فما تزال حائرة تردد في نفسه حتى تستقر في تلك الرموز التي تواضع عليها الناس ، وتصبح بعد ذلك مادة للحديث والتفكير والكتابة ، وتصبح سبيلاً إلى تفهم التاريخ والجغرافية والطبيعة وغير ذلك

ولعل الطفل في حياته اللغوية يمثل الإنسان الأول في كسب اللغة واسطناع ألفاظها ، فهو يتدرج في تعلمها من المحسوسات إلى المقولات ، وهو يحسن كل الاحسان أسماء المراتب ، لكنه يعاني غير قليل من الجهد في تفهم المعاني . وقد مر الإنسان الأول في مثل عصر الطفولة حينما كان العالم نفسه طفلاً ، وحين دفعته الحاجة إلى أن يتعلم الأسماء كلها . وتمعدت اللغة في أطوار الإنسانية حتى انحدرت إلينا وهي على ما هي عليه من التعمق والاعراق ؛ وحتى أصبحت دراستها تقتضى نصيباً كبيراً من الحس الرفيع والتفطن الدقيق

ف لغة الإنسان إذن وحدة في ذاتها تتألف من شتات من الجزئيات ، ولغته الأصلية هي التي صاحبت تكوينه العقلي . منها يستمد أفكاره ومنها يكون صوره العقلية ، بل هي التي توحى إليه

بل لا بد له أن يتأصل في مادة التفكير التي يتغذى بها التلاميذ .
إصلاح مثل هذا سوف تتأثر به الجغرافية والتاريخ والكيمياء
والفلسفة والمنطق ، وكذلك سوف تستقيم به طرق التدريس التي
نجاهد في إدخالها على اللغة الإنجليزية . ولعلنا لا نفلو كثيراً إذا
قلنا إنه أساس كل إصلاح آخر

٣ - الفرضيات من تعميم اللغات : ولأن يكون كلامنا
محددًا ، ونأخذ نمطاً بين اللغة الأصلية واللغة الدخيلة ، نرى أن علاج
الفرض الذي ينبغي أن نلتزمه في تعلم اللغة العربية والفرض الذي
ينبغي أن نلتزمه في تعلم اللغة الإنجليزية

فإذا كان بين اللغة الأصلية واللغة الدخيلة مثل تلك الصلات
الفكرية ، فإن بين اللغتين فروقاً تحدد السبل التي تتخذها في
تعليم كل منهما . فللغة كما قدمنا آثاراً تختلف على حياة الإنسان
لها أثر عقلي عميق يكاد يحكم نمو إدراكه وتطور تفكيره . ولها
بعد ذلك أثر حسي يتصل اتصالاً وثيقاً بفكرة الجمال التي يكسبها
من الشعر والأدب . ثم إن لها أثراً عملياً أو فنياً يغير منه في
حياته كأي مهارة أخرى . وهذه الأنواع الثلاثة من الآثار هي
التي تختلف على متعلم اللغة إذا أحسن تنشئته على الأصول النفسية
التي جهد في استنتاجها الذين أوتوا العلم من المعلمين والمربين .

ونحن في حديثنا عن اللغات يجب أن نفرق بين هذه الآثار
وارتباطها باللغة العربية أو باللغة الأجنبية . أما اللغة العربية فإنه
يتعمل فيها كل الآثار التي ذكرنا . لها أثر عقلي بصاحب الإنسان
عند النشأة الأولى ويلزمه في كل طور من أطوار حياته ، ولها
كذلك أثر حسي يحضه الشعور بالجمال ويفيض عليه كثيراً من
ألوان السرور ، ولها أثر ثالث عملي لأنهما وسيلة الكتابة والحديث
بين الأفراد والجماعات . أما أثر اللغة الأجنبية عندنا فهو فني
أو قل عملي . حقاً قد يكون لها أثر عقلي إذ تتدخل في تربية
الإنسان ونمائه ، وقد يكون لها أثر حسي إذا أحسن تعلمها .
ولكن وجهها النفعي أوضح وجوهاً ، وإنما يتعلم المرء اللغة
الأجنبية لتكون صلة بينه وبين فروع المعرفة التي اتسعت لها ،
وحسبه أن يحسن قراءتها . ولعلها تصبح مادة زاخرة توحى
إليه العواطف ، وربما أصبح بينها وبين تفكيره صلات ولكنها
على الحاليين لن ندرك ما تبلغه لغته الأولى التي درج عليها والتي
كانت أقرب إلى عقله وقلبه ووجدانه .

فاللغة الأصلية واللغة الدخيلة مختلفان في تقديرنا اختلافاً
شاسعاً . الأولى صاحبة الأثر العقلي الذي يدفع بتفكير المتعلم إلى
نواحي التقدم ، والثانية تستمد وجودها كأداة للتفكير من اللغة
الأولى . واللغة الأصلية ذخيرة تتجلى فيها آيات الجمال بما في تراثها
من أدب وحكمة ، وتنبئ فيها بذائع الشعر بما تتحملة من وحي
والهام . أما الثانية فلن تبلغ هذا الأثر إلا إذا أحسنها المتعلم كل
الاحسان ؛ وليس يبلغ ذلك إلا الخاصة الذين لا يقومون للعلم في
حسبان . وهي عند كافة المتعلمين بعيدة عن نطاق الجمال والالهام
غير قريبة من مواطن التفكير الدقيق أو جادة التفتن والتفصيل .
واللغة الأصلية واللغة الدخيلة بمد كل ذلك جذبتان أن نحسبهما
قراءة ومطالعة ، لأن احسان قراءة الأولى واجب حتم ، ولأن قراءة
الثانية هو سبيل الاتصال بمحضرة أصحابها .

وفيما أسلفنا من حديث عن آثار اللغات مواضع تتعرف منها
الغاية من تعلم اللغات كل منها على حدة ، فالمطالعة أو قل القراءة
المستوعبة هي الغاية من تعلم اللغة الأجنبية ، لأن إتقانها هو السبيل
إلى فهم ما يكتب فيها ، ولأننا في تعليمنا اللغة الأجنبية نرى إلى أن
نفتح للتعلم أبواب تلك اللغة حتى يتصل بثقافتها . ونحن نتعلم
اللغة الإنجليزية لنقرأ مؤلفاتها ، ونحن نحسن الفرنسية لكي
نلم بمحضرة الفرنسيين ؛ وليست الفرنسية ولا الإنجليزية
إحداها ولا كليتها بضرورة لازمة لحياتنا العقلية أو لثريتنا
النفسية ؛ واذن فيجب أن تدور جهودنا في تعليم إحدى هاتين
اللغتين حول تلك الغاية المثلى : يجب أن تدور حول المطالعة لأنها
الغاية النفعية التي تحدثنا عنها . وليست الكتابة ولا الخطابة
ولا تذوق الأدب بما فيه من قصص وتمثيل من شأننا في تعليم
الإنجليزية ، فإذا جاء كل هؤلاء فاعلموا بأنهم بعد المطالعة لا قبلها

أما اللغة الأصلية — وهي العربية عندنا — فينبغي أن تكون
الغاية من تعليمها فوق ما ذكرت . إن القراءة جزء من الغاية التي
نشدها إذ نعلمها . نحن نعلم العربية لنخرج مفكرين يحسنون
تصور الكلام ويجيدون التعبير عما في نفوسهم . بل يجب أن
نعلمها حتى يتذوقوا التراث الأدبي الذي ترخر به اللغة نفسها .
واذن فدراسة العربية ينبغي أن تكون تدريباً فكرياً وتدريباً
نفسياً وتدريباً عملياً أيضاً ، وتنشعب هذه الأغراض وتتعدد